الحق جاهد

للأستاذ عبد الرحمن شكري

إن الإنسان كلما كبر علمته التجارب أن التقاتل على أكثر الآراء عناء زائل وأمر حائل، وأن ما يدعى تقاتلاً على الحق إنما هو تقاتل على المطامع التي تدعى حقًّا . قال أحد الفلاسفة : من المقرر في علم الحساب أن جمع الاثنين والاثنين أربعة ولكن لو كانت هذه المسألة من مسائل الحياة التي تختلف فيها مطامع الناس ومطالبهم ومآربهم لكان بين الناس من يعتقد بإخلاص وحسن نية أن جمع الاثنين والاثنين خمسة أو سبعة أو تسعة حسب ما تقتضيه مطامعهم وفوائدهم . وكل منهم يعتقد بإخلاص أن جمع الاثنين والاثنين إذا كان في رأيه خمسة أو سبعة أو تسعة غير مؤسس على ما تقتضيه المطامع والفوائد الخاصة ، وإنما وصل كل منهم في اعتقاده إلى هذه النتيجة بالتخلص من لوازم شخصه وبالفكر النظري الخالص من كل شائب . لكن الناس اتفقوا على أن جمع الاثنين والاثنين أربعة لأن هذا الجمع ليس من الأمور التي تختلف فيها مطالبهم أو فوائدهم . على أن الناس في الحقيقة يختلفون في جمع الاثنين والاثنين عند ما يخرجونه من حيّز المسائل الحسابية النظرية العارية وعند ما يلبسونه لباساً من مطالب الحياة وفوائدها واختلاف أوجه النظر فيها حتى تصير المسألة الحسابية البسيطة مقنعة غير ملحوظة في أفكارهم ومطالب حياتهم وكأنها غير موجودة

أذكر أني قابلت أثناء الحرب العظمى الماضية أحد أفاضل الأجانب ممن اتصف بالعدل وصدق النظر في الأمور والاعتدال في الرأي ، وجرى بيننا الحديث عن الحرب والأمم المتقاتلة فيها فأطرى الفرنسيين وذم الألمان ، وأوضح أسباب المدح والذم . ثم انقضت الحرب وشاركت فرنسا بعدها بمحالفة الدول الأوربية السيطرة على القوى البرية في أوربا وخشيت انجلترة أن تخل بالتعادل الدولي . وقابلت صاحبنا فذم الإنجليز ومدح الألمان وقال هم أبناء عمنا، وذكر أسباب المدح والهجاء . ولو قابلته الآن بعد أن عادت انجلترة وفرنسا إلى الوفاق وبعد أن قويت ألمانيا لعاد إلى رأيه الأول وصاحبنا هذا رجل عدل وإنصاف واعتدال في أمور الحياة، وهو في كل حالة كان يعتقد ما يقول، ويرى أنه الحق ولا حق غيره، وهذا الفاضل ليس ببدع، فهذه سنة الناس فيما يسمونه حقاً يحورونه ويحولونه بإخلاص وحسن نية إلى ما يناسب آمالهم ومطالبهم وأحاسيسهم، وهم لا يشعرون بذلك التحويل، وعدم فطنتهم إلى هذا التحويل هو سبب اندفاعهم في نصرة ما يسمونه حقاً وسبب إباحة كل وسيلة في نصرته؛ ومن هذا الطريق يدخل نفس الفاضل الحسن النية ما يدخلها من شر وقسوة ولؤم، فكل إنسان في الحياة يدخل في معنى الحق ما يتفق وحالات نفسه وخواطرها وآمالها ومسراتها وصداقاتها وعداواتها، وما يناسب نشأته وثقافته الخاصة وميوله، وهو يُدخل ما يدخله في معنى الحق من غير أن يعمل عمل المنافق الذي يُخفي من رأيه غير ما يعرض على الناس ، ولو سميتا طريقته في تحويل الحق إلى جانبه نفاقاً لكانت نفاقاً لا يحس صاحبه أنه نفاق

فإذا أضفت إلى هذا النفاق غير المقصود الشائع في كل نفس ما تقصده أكثر النفوس من تضليل العامد إلى النفاق المدبر، ظهر أن محاولة معرفة الحق أمر جاهد حقا وظهر السبب في خطأ الناس في قدر ما يعرض عليهم من الأمور التي تسمى حقا . إذ أن السعار والضرواة في نصرة ما يسميه كل إنسان حقا ليست مقصورة على صاحب النفاق المدبر الذي يعرف صاحبه أنه ينافق فيما يسميه حقا، بل إن الضراوة والسعار في نصرة الحق أمران قد يلفيان في نصرة صاحب النفاق غير المقصود لما ينتصر له من الأمر الذي يسميه حقا . ومن أجل ذلك قلما يعنى الناس أنفسهم بفحص ما يعرض عليهم من الأمور للوصول إلى الحق . فهم أيضاً في حكمهم شأنهم شأن صاحب الأمر الذي يعرضه عليهم كي يقبلوه ، فهم إما يقبلونه على أنه حق إذا وافق هواهم وإما يعرفون بطلانه ووجه تزييفه ويدعون أنهم انخدعوا لصاحبه . فإذا خالف هواهم قالوا إنه باطل وهم في كل حالة قد يغالطون أنفسهم ويدعون الفحص والتمحيص ويعتقدون ما يعتقدون أو ما يتظاهرون باعتقاده بحسن نية ، وقد يجتمع حسن النية والتظاهر ، إذ أن النفس تستطيع أن تخادع نفسها حتى في تظاهرها بغير ما تبطن . ومن أجل غلبة الأهواء يقول البحتري :

أخيّ إذا خاصمت نفسك فاحتشد لها وإذا حدّثت نفسك فاصدق

فقال احتشد لها لأن النفس أغلب بالأهواء وأملك عيوبها ،

وفى البيت إرشاد إلى ثقافة ولكن الثقافة نفسها قلما تخلو من أهواء النفوس وقلما يستطيع المرء أن يحتشد لنفسه إذا خاصمها بالحق وقلما يحاول أحد تلك المخاصمة وذلك الاحتشاد للحق مادام يلون الحق كما يشاء، ويصنعه صناعة أو يصطنع فى نفسه وهو لا يدرى. والحق يختلف أيضاً باختلاف آراء المرء حسب حالات جسمه وأعصابه الناشئة من سقم أو صحة وقوة أو ضعف وحالات معدته ومطاعمه. ولو فكر المرء فى اختلاف الحق حسب اختلاف مطالب المرء ونشأته وثقافته وحالات نفسه وجسمه فإنه قد يستطيع مع إدمان الفكر أن يقلل من ضراوته وأكاذيبه وحقده وغيرها من الوسائل التى يناصر بها الحق، على حد قول القائل إن الغاية تبرر الواسطة، فيبرر ضراوته وأكاذيبه وحقده لأنه يستخدم هذه الوسائل فى نصرة الحق الذى هو أيضاً وليد أحاسيسه وحالات نفسه وجسمه

واستعراض هذه الأمور العديدة التى تشكل الحق فى نظره يسقط حجته فى أن الغاية الشريفة تبرر الواسطة الدنيئة إذ أن شرف الغاية معدوم أو إذا كان موجوداً فقلما يكون بقدر ما يشرف الواسطة الدنيئة. بل إن الواسطة الدنيئة تقضى على بقية الشرف فى حقه الذى خالط فيه الصدق حاجات نفسه وميولها

والعصبيات تتلف الحق وتمنع المرء من الاحتشاد الذى أراده البحترى عند محاسبة النفس كعصبية المودة أو القرابة أو المصاهرة أو المنفعة المتبادلة أو عصبية الجوار والبلدة الواحدة، وهذه العصبية الأخيرة قلما تكون إلا إذا اختلف أهل البلدة التى استفحلت عصبيتهم عمن حولهم من أهل البلاد الأخرى اختلافاً فى الجسم أو النشأة، ولا عيب فى تلك العصبيات إذا التزمت جانب الشرف والإنصاف والضرورة القصوى، أما إذا تعدته إلى جانب الإسفاف والجهل والظلم بغير داع ضاع الحق فى مطالب تلك العصبيات. وعصبية المصاهرة على ما بها من عيوب قد تكون مصدر قوة لطائفة كبيرة هى قوام الأمة أو شبه قوام، ولكنها إذا دخل فيها من لا يمتاز إلا بقوة الجسم، وارتفع إلى المصاهرة أناس من السفلة وأهل الغباء نشروا عدوى خصالهم الذميمة وآرائهم المخطئة بين أناس من ذوى الأناقة فى الخُلُق والرأى، ومن ذوى الاعتدال فى الحكم، فتنقلب المصاهرة متلفة للحق ولأمور الناس

والضراوة فى مناصرة مطالب تلك العصبيات التى تسمى حقاً تشتد كلما قلت الثقافة فى أمة وزاد الشعور بالنقص فى نفوس أبنائها وكثر التهريج والمهرجون الذين يخلقون لأهل الغباء مبادئ سامية من أحط نزعات نفوسهم.

وأحقاد الناس فى الحياة ليست عبيد حاجاتهم وضروراتها بقدر ما هى عبيد هواجسهم المبهمة التى تحلق فى أذهانهم ونفوسهم كما تحلق الخفافيش تحت قبة البناء المظلم المهجور، وذلك لأن الحاجات والضرورات تنقضى وتحد، ولكن الهواجس لا حد لها ولا انقضاء.

إن الإنسان لا يدهش كثيراً إذا وصف أمامه إنسان بالشر والمكر والسوء، وهو يعرف أنه أبعد الناس عن هذه الصفات قدر ما يدهش إذا كان هو الموصوف بهذه الصفات لأن دهشته فى الحالة الثانية تعود على أمر يخصه ويؤلمه، والدهشة الممزوجة بالألم أشد وقعاً فى النفس من الدهشة الخالية من الألم، ولأن كل إنسان يعرف من أسباب أقواله وأعماله مالا يعرف عن أسباب أقوال غيره وأعماله، ويعرف من حالات نفسه فى تلك الأقوال والأعمال مالا يعرف عن أحوال نفس غيره، فهو بهذه المعرفة يستطيع أن يسوغ أقواله وأعماله، وبذلك الجهل لحالات نفس غيره لا يستطيع إلا إنكار أقوال غيره وأعماله إن كانت تستدعى الإنكار أو تحتمله، وهذا بالرغم من أن كل إنسان يعرف من هواجس السوء التى تتردد فى نفسه أكثر مما يعرف من هواجس السوء فى نفس غيره. فإن الإنسان لا يستخدم ميزاناً واحداً فيما بينه وبين الناس؛ فهو مثلاً يكذب كثيراً ويعد كذبه أمراً هيناً فإذا كذب غيره فى حقه عده لؤماً ليس بعده لؤم.

كل هذه الحقائق حقيقة بأن تزهد المفكر المتأمل فى سعاره أو ضراوته فى مناصرة ما يسميه حقاً وأكثره ليس بحق، وهى حقيقة بأن تزهده فى رأى من يرى أن الغاية تبرر الواسطة، إذ أن خطأه فى قدر الغاية قد يكون عن حسن نية، ولكنه قد يسوقه حسن النية إلى أعمال اللؤم والإجرام فى سعار مناصرته للحق المزعوم الذى فى تلك الغاية التى أخطأ فيها وعدها نبيلة وهى ليست نبيلة، وحسن نيته فى ذلك الخطأ لا يخليه من إثم ولؤم ذلك السعار وتلك الضراوة

إن الذين يُمَنُّون أنفسهم بالبحث عن الحق قليلون